

معاً ، حتى نهاية المطاف

بقلم : أدما حبيبي

"أين بابا" ؟ هو أكثر سؤال تخاف منه المرأة. يهزها، يزعجها ويُلغِي كل أبعدياتها. بسببه تنتشر مرارة الحياة مع رجل لا تحبه، خوفاً من طفل يسألها : أين بابا؟

هن كثيرات متزوجات لسن سعيدات ، يفضلن الانفصال، الطلاق، الخلاص. لا يمنعن سوى طفل يسأل: أين بابا؟

خنجران هما في الصدر. زوج لا يرحم وطفل لا يريد أما بلا أب. وهي وحدها تدفع الثمن. هي تعلم أن الحياة مع رجل لا تحبه تكون جحيماً. وهي تعلم أن الحياة مع طفل محروم من أبيه جحيم أكبر. لذلك تضحي خوفاً من لحظة ندم، يسأل فيها الابن عن أبيه فلا يجده.

كثيرات يشتكين ويردن الخلاص. وكثيرات بلا شكوى ويردن الخلاص. كلاهما قادر على القرار. ثم يلغي القرار مع أول دمعة تنساب على وجنتي طفل يسأل: أين بابا؟

بعض النساء يتخذن القرار. ينهين معاناة الحياة مع رجل لا حياة فيه. لكن يبقى الخوف من السؤال : أين بابا؟ "

كانت تلك كلمات نثرية دونها الكاتب هاني نقشبندي في زاويته المعهودة في مجلة سيدتي التي تصدر في لندن و يرأسُ هو تحريرها. نعم ففي كلماته يؤكد الكاتب بأنه لولا سؤال الأطفال أين بابا لكان الوضع مختلفاً، ولاختارت المرأة الأم الفراق طريفاً لها والانفصال عن الأب الظالم الذي لا تحبّه ولا تقدر أن تستمر في العيش معه حلاً لمشاكلها ومعاناتها. لكنه يعود ليقول على الرغم من ذلك فإن البعض من النساء يتخذن القرار ويُقدِمْنَ على الطلاق لينهين مأساتهن ويبقى الخوف في قلوبهن قابلاً من السؤال أين بابا...

أين بابا سؤال يردع معظم نساتنا العربيات من الإقدام على خطوة الانفصال ومن ثم الطلاق. فالسؤال يعيب بأوتار قلب الأم فتتحرك أحشاؤها على أولادها فلذات أكبادها، ومن جرّائه تتخذ القرار بأن تبقى صامدة وصامته في بيتها الزوجي.

هل حدث أن رأيتم يا إخوتي ما يفعله انفصال الأبوين في الأولاد؟ هل رأيتم مرةً شرودَ ذهن الطفل ظاهراً في تعابير وجهه الصغير؟ أم هل لفت انتباهكم شحوبُ محيّاهُ وكأنّ المرض قد ألمّ به. أجل إنه مرضُ النفس وجرحُ الأحاسيس والمشاعر التي سرعانَ ما تطفو نتائجُها على السطح. أمّا أنا فقد رأيتُ بأم عيني ما يفعله الطلاق في نفوس بعض الأطفال، في وجوههم وفي أحاسيسهم المرهفة. وليس هذا فحسب، بل رأيتُ كيف يؤثّر على مواقفهم العقلية والسلوكية. ولشدّ ما حزّ في نفسي هو ذلك الطفل ، الذي أكنّ له مشاعر

خاصة، إذ ظلّ يحلم ويأمل بأن يعود أبوه يوماً إلى أمه وكذا أمه إلى أبيه، ليعيشا كالسابق معاً تحت سقف واحد وحتى نهاية المطاف. وفي يوم من الأيام ذهبتُ كلُّ أحلامه أدراج الرياح عندما اكتشف أن أباه قد اقترنَ بأخرى ، وأنجبَ منها بعدُ ولداً آخر أخذ مكانه ومكانته. رأيتُ الأحلام تخبو من عينيهِ الواسعتين، وأصبحتُ نظراته حزينةً بعض الشيء حتى حين كان يلعب ويلهو مع أقربائه وأصدقائه. تُرى مَنْ يعيدُ لهذا الطفل بريقَ الأمل بحياةٍ رعيدة في كنفِ والدين حنونين؟ أجل ومن يُرجعُ الحيوية والنشاط لوجهه الشاحب؟ وكيف نسترجع البسمة المشرقة إلى شفثيه الغضبتين؟ من ومن ومن...؟

والسؤال الآن هو : إذا كان الخوف من السؤال "أين بابا"، يردع البعض من اتخاذ القرار في الانفصال أو الطلاق، مع أن الطلاق يحصل في بعض الأحيان حتى وبين أولاد الرب المؤمنين وبغضّ النظر عن الأسباب، فماذا عن كلمة الله المقدسة التي جاءت في تعاليم الكتاب المقدس ومنذ بداية تاريخ تعامل الله مع البشر؟ كيف لا تردع كلمة الله ، التي أوحى بها الله تعالى إلى أنبيائه الأتقياء ، الإنسان بشكل عام من أن يرتكب هذا العمل؟ ألم يقل النبي ملاخي عن الله بأنه يكره الطلاق؟ إن كلمة الله موجهة لكل بني البشر على السواء لأن الخليقة واحدة في نظر الله ، لذا فهو يتعامل مع البشر أجمعين ليقول لهم وبغض النظر عن طوائفهم وملهم أو شريعتهم يقول لهم: لأنه يكره الطلاق قال الرب. فهل تردعنا كلمة الله يا ترى قبل أن نُقدم على هذه الخطوة ؟ وهلاً توقّفنا لحظات لنفكر في المآسي التي يجلبها الطلاق على عائلاتنا وأولادنا وقبل كل شيء على نفوسنا نحن كأهلين؟ كأب أو كأم لا فرق؟

أتى مرةً الفريسيون اليهود إلى الفادي يسوع المسيح وسألوه قائلين: "هل يحلُّ للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى؟ وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا: فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتطلق؟ قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلقة يزني." (متى ١٩)

نعم يا إخوتي من البدء لم يكن هكذا. هذا ما قاله الرب يسوع المسيح. لكن من أجل قساوة قلب البشر أذن لهم موسى أن يطلقوا. أما الله سبحانه وتعالى فلم يوص بهذا أبداً. فهل فكر الزوجان قبل أن يُقدما على هذه الخطوة بما يعلمه الله في كتابه المقدس؟ هل فكر الزوجان بكلمته المقدسة قبل أن يتخذا قرار الانفصال؟ وهل يحسُّ الزوجان حين يقرأ هذه الكلمات المقدسة بأنها رادع قوي يردعهما من كل خطوة لا تليق بهما كأولاد وبنات لله؟ وهل نرتدع حقاً إخوتي حين نقرأ أن الطلاق مكرهة عند الرب؟ وماذا ترانا فاعلين إزاء هذه الكلمات النورانية التي تكلم بها المسيح؟ قال مرة: من يحبني يحفظ وصاياي. فهل نحن نحبه فعلاً؟ إذا كنا نحبه فعلاً فإن العهد الذي قطعناه على أنفسنا أمام الله والناس يوم الزفاف هو عهد مقدس وقائم مادام الزوجان حيين. فهل نقوم بتتميم هذا العهد؟ نتعهد بالالتزام به من أجل الحفاظ على الزواج وعلى البيت العائلي ومهما كان الثمن؟

المحبة وحدها لا تكفي بين العروسين. هذا ما قاله أحد الرعاة مؤخراً في أحد الأعراس التي حضرتها. لأنه إن لم يبين الرب فباطلاً يتعب البنائون. وعندما يجمع الرب قلبي العروسين في المحبة يبقى هناك الالتزام من قبل الزوجين لهذا الزواج وهذا العهد الذي قطعاه على أنفسهما أمام الله وأمام الناس. لأنَّ الالتزام يجبر العروسين على البقاء في الزواج ومهما كانت الأحوال بينهما. في السراء والضراء في الصحة والمرض تماماً كما تعهدا. فهل نتخلى عن أنانيتنا ونفكر في مسؤولياتنا وتعهداتنا التي قطعناها أمام الله والناس؟ ونبقى أمنا عليها؟

عندها لا، لن يعود السؤال "أين بابا" هو الرادع الذي يردعنا من الإقدام على خطوة الطلاق، بل كلمة الله القوية والفعالة هي التي تهدينا وترشدنا في كل محنة نمر بها. ولننذكر دائماً أن الطلاق هو مكرهة الرب. فهل نسمح لكلمة الله أن تخرق أعماقنا لتغيرنا وتبدلنا وتجددنا قلباً وقالباً؟ وهكذا نبقي معاً وحتى نهاية المطاف؟